انهيار الرأسمالية

كتاب جيد تأليفًا وترجمة وسعرًا ، أشكر للدكتور عبد الله قربان تركستاني تكرمه بإعارتي هذا الكتاب ؛ الذي لم أجده في السوق . هذا العرض ينفع الناطقين بالعربية من الاقتصاديين المسلمين وغير المسلمين ، كما ينفع المهتمين باقتصاد السوق الاجتماعي المطبق في ألمانيا وسوريا وبلدان أخرى ، كذلك ينفع المهتمين بالأزمة العالمية .

وهذا الكتاب أفضل من الكتب والكتابات التي يكتبها بعض الاقتصاديين المسلمين الناطقين بالإنكليزية ، يقتطفون جملة من هنا وجملة من هناك ، ثم يحشّون كتبهم وكتاباتهم بآيات وأحاديث تقول لكاتبيها وقارئيها : أخرجوني ، أخرجوني ! وقد يحصلون على الجوائز ، ويزعمون أنهم كتبوا في الاقتصاد الإسلامي ، وهم مجرد نقلة عن المؤلفين الغربيين ، يموّهون فعلتهم ببعض الحيل والتمويهات والتشويشات . وهم لا يستطيعون أن يشرحوا ولا أن يوضحوا شيئًا ، بل قد لا يزيد عملهم على استبدال يوسف بجوزيف ! وقد نترجم لهم كتبهم ، وغالبًا ما تكون ترجمة الكتاب أصعب من تأليفه !

العنوان الكامل للكتاب : « **انهيار الرأسمالية : أسباب إخفاق اقتصاد السوق المحررة من القيود** » ، تأليف : أولريش شيفر Ulrich Schäfer ، ترجمه عن الألمانية عدنان عباس علي ، نشر عالم المعرفة ، الكويت ، يناير ٢٠١٠م ، ٤٦٦ صفحة . طبع منه ٤٣ ألف نسخة .

أولريش شيفر كما جاء في الكتاب هو من مواليد ١٩٦٧م ، درَس

الاقتصاد في جامعة مونستر بألمانيا ، كما درَس الصحافة في جامعة واشنطن العاصمة ، وفي مدرسة هنري نانن للصحافة في هامبورغ بألمانيا . وعمل محررًا اقتصاديًا في مجلة دير شبيغل الألمانية . ويشرف حاليًا على تحرير الصفحة الاقتصادية في الصحيفة الألمانية Suddeutsche Zeitung .

يحتوي الكتاب على ١٢ فصلاً :

١ـ الرأسمالية قاب قوسين من الهاوية .

٢ـ منظرو الرأسمالية الجديدة .

٣ـ الطريق إلى اقتصاد السوق المحررة من القيود .

٤ـ ازدهار الرأسمالية .

٥ـ الأزمة في فصلها الأول : الاقتصادات الناشئة تترنح .

٦ـ الأزمة في فصلها الثاني : نهاية اقتصاد تكنولوجيا المعلومات ومؤسسات الإنترنت .

٧ـ الأزمة في فصلها الثالث : انفجار فقاعة السيولة الزهيدة الثمن .

٨ـ الانهيار الكبير .

٩ـ المجتمع السقيم .

١٠ـ العالم يعيش حقبة تحولات مهمة .

١١ـ برنامج مضاد للسقوط في الهاوية .

١٢ـ الأزمة الحالية ستليها أزمة أخرى بكل تأكيد .

أبعاد الأزمة

هناك مراقبون واقتصاديون ومصرفيون حذروا من اندلاع كارثة مفجعة ، لن تقتصر على بلد واحد ، أو إقليم واحد ، بل ستتخذ أبعادًا

عالمية . وهكذا حدث ، ففي خريف عام ٢٠٠٨م انهارت أسواق المال انهيارًا لم يعرفه العالم منذ أزمة ١٩٢٩م .

أزمة عالمية

على مدى ما يقرب من عام ونصف اعتقد الكثيرون أن الأزمة المالية هي مشكلة أمريكية بحتة ، وأن الولايات المتحدة هي المسؤولة عن حلها أولاً وأخيرًا . لكن ما كاد يعلن إفلاس المصرف الاستثماري **ليمان برذرز** ، في ٢٠٠٨/٩/١٥م ، حتى اندلع إعصار هائل أحاط بالعالم أجمع ، في غضون بضعة أسابيع .

الاقتصادات الناشئة

إن الأزمة التي بدأت في مدن كاليفورنيا ونيفادا وأوهايو سرعان ما انتشرت في جميع البلدان الصناعية ، بل كادت تتسبب في دفع أيسلندا إلى إعلان الإفلاس . من ناحية أخرى أدت الأزمة إلى ترنح بعض الدول ذات **الاقتصادات الناشئة** وتعثرها في خدمة ديونها ، مثل الأرجنتين وباكستان وأوكرانيا والمجر وروسيا البيضاء . واتسعت آثار الزلزال حتى وصلت إلى البلدان المنتجة للنفط في دول الخليج .

الإنسان الاقتصادي

هذا الإنسان الاقتصادي Homo oeconomicus الذي تفترض النماذج الاقتصادية النظرية أنه يتصرف تصرفًا اقتصاديًا رشيدًا ، بدا فجأة أنه ليس كذلك ، بل هو كائن تحركه مشاعر الجشع والنشوة ، مشاعر الخوف والذعر ، مشاعر تؤدي لا محالة إلى أن يخيم الجنون على أسواق المال ، المرة تلو المرة .

فشل السوق

يقول جوزيف **ستيغلتس** عام ٢٠٠٨م ، وهو الحائز على جائزة نوبل : لقد علمتنا أزمة الكساد الكبير أن السوق غير قادرة على تسوية الأمر .

الخوف من اقتصاد السوق

يتصاعد فزع الناس من مغبة السقوط في الهاوية ، ومن اقتصاد السوق ، وتزداد المخاوف من الشطط المخيم على كثير من المنشآت ، ومن المصرفيين الذين ليس لديهم أي إحساس بالمسؤولية ، ومن قادة الشركات الذين يستأثرون بأعلى الرواتب وأضخم المكافآت ، ومن الأغنياء الذين استقلوا بأنفسهم عن بقية أبناء المجتمع ، وراحوا يعيشون في عوالم خاصة بهم .

اقتصاد السوق المتكفلة بالرعاية الاجتماعية

وقد يطلق عليه اختصارًا : **اقتصاد السوق الاجتماعي** ، هذا النظام حقق نجاحًا كبيرًا في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فبفضله ارتقت ألمانيا المدمرة إلى مرتبة ثالث أمة صناعية في العالم .

تفاوت فاحش في الدخول

ـ في مطلع الثمانينيات كانت النسبة بين دخل الفرد الواحد من رؤساء الشركات الأمريكية وبين دخل العامل العادي ٤٠ إلى ١ .

ـ في نهاية التسعينيات بلغت هذه النسبة ٤٠٠ إلى ١ .

ـ الدخل السنوي الذي حصل عليه رئيس إحدى الشركات بلغ ٦٠ مليون يورو عام ٢٠٠٧م ، ويمكن أن يرتفع إلى ١٠٠ مليون يورو في عام ٢٠٠٨م ، وهو ما يعادل ٢٠٠٠ ضعف أجر العامل العادي !

ـ قال وزير المالية الألماني : كثير من قادة المشاريع يطيب لهم أن تكون الشمبانيا لهم وحدهم ، أما العاملون لديهم فإنه يطيب لهم أن يدفعوا إليهم الأجر المتعارف عليه في الصين !

ـ إن هدفهم يتمحور حول الربح ، ونادرًا ما تكون له علاقة بالمسؤولية الاجتماعية .

ـ قام هنري واكسمان Henry Waxman عضو الكونغرس الأمريكي باستجواب رؤساء الشركات أصحاب الرواتب الخيالية ، وحدق في عيون ثلاثة منهم قائلاً لهم : إنكم متورطون في كارثة تحمل الجميع وطأتها ، ولم ينجُ منها إلا أنتم ، أنتم وحدكم خرجتم منها سالمين !

ـ أحدهم طرد من مصرف ميريل لينش وحصل على تعويض قدره ١٦١ مليون دولار في الوقت الذي سجل فيه مصرفه خسارة قدرها ١٠ مليارات دولار !

ـ إننا في أمس الحاجة للدخول من جديد في نقاش حول « **الأجر العادل** » .

مدرسة ميونخ الدولية

إنها تربي نخبة الغد ، ونخبة اليوم هي وحدها القادرة على تحمل تكاليف هذه المدرسة . فتكلفة تلميذ الصف الأول الابتدائي على سبيل المثال تبلغ في العام الواحد ١٢٤٩٠ يورو .

جمعية اقتصادية أشبه ما تكون بالمحفل الماسوني

جمعية مونت بليرين أسست في ١٩٤٧م ، وتحولت مع الزمن إلى منتدى من أهم منتديات العالم . كان لهذه الجمعية أثر كبير جدًا ، ولم

تعرف إلا بعد حصول ٨ من أعضائها على جائزة نوبل . يرى فيها البعض أنها **حكومة عالمية تعمل في الخفاء** ، ويرى آخرون أنها أشبه ما تكون بالمحفل الماسوني .

كينز يهاجم المضاربة

لأنها يمكن أن تلحق بالاقتصاد أفدح الأضرار ، مع أنه استطاع أن يجني منها في البورصة ثروة كبيرة . يصف كينز المضاربة بأنها موضوع ذو علاقة بالغرائز الوحشية في المقام الأول . ويقول : إنني على علم أكيد بما أتحدث عنه ، فأنا شخصيًا مارست هذه اللعبة في السنوات العشر الماضية . ويردّ على من يقول : إن الأسواق لا بد أن تحقق التوازن على المدى الطويل . يردّ مستهزئًا : في المدى الطويل سنكون جميعًا في عداد الأموات !

لقد كان خروج كينز على الفكر المألوف مدعاة للآخرين لكي يسخروا منه . يقول وينستون تشرشل ؛ الذي أصبح فيما بعد رئيس وزراء بريطانيا : حينما تسأل ثلاثة اقتصاديين عن آرائهم في موضوع معين ، فإنك تحصل على أربعة أجوبة مختلفة ، اثنان منها من بنات أفكار كينز ! لكن فكر كينز هو الذي أخرج الاقتصاد العالمي من أزمة الكساد الكبير ١٩٢٩م .

في السنوات العشرين الأخيرة تم تجاهل فكر كينز في الدولة التدخلية وفي المضاربة ، لكنهم كانوا يمارسون أفكاره أحيانًا ، من غير إشارة إلى اسمه ، لإنعاش النشاط الاقتصادي .

توفي كينز في نيسان (إبريل) ١٩٤٨م بالسكتة القلبية ، ولم يتجاوز عمره ٦٢ سنة .

إدمان المضاربة

كما أن المدمن على المخدرات تكفيه في البداية جرعة صغيرة من الحشيش ، إلا أنه يحتاج بعد ذلك إلى جرعات أكبر في الكم وأقوى في الفاعلية لبلوغ النشوة المنشودة والاستغراق في عالم آخر : عالم الأحلام والصور الوهمية . كذلك المقامرة في البورصة تبدأ بمبالغ صغيرة ثم تنتهي بمبالغ ضخمة .

البورصات ساحات للقمار

أصبحت البورصات حلبة تستقطب المضاربين ، حلبة يتم التعامل فيها بأكثر من ٣ تريليونات دولار أمريكي في اليوم الواحد ، أي ٩٠ ضعف حجم التجارة العالمية السلعية . لقد صارت أسواق المال حلبة للجشع ومكانًا لتحقيق الربح بأقصى سرعة . كما تحولت إلى **كازينوهات للقمار** ذات أضواء متوهجة . تحولت إلى خطر يهدد **الاقتصاد الحقيقي** ، وليس الاقتصاد المالي فحسب ، خطر يتسبب في زعزعة استقرار دول بأكملها .

أندية القمار

في عام ١٩٢٧م كان عدد أندية القمار ١٦٠ ناديًا ، وبعد عام واحد ارتفع العدد إلى ٣٠٠ ، وبعد سنتين إلى ٧٥٠ .

أسواق المال تحولت إلى وحوش كاسرة

لم يعد من السهل السيطرة عليها . الجميع يريدون الاشتراك في خضم المضاربة في قاعة القمار : المصارف ، صناديق التحوط ، صناديق المعاشات ، كبار المستثمرين وصغارهم . . . إلخ .

معادلات رياضية

أنشأت المصارف أقسامًا خاصة للمشاركة في المضاربة المحتدمة ، واستقطبت آلاف الشباب المتخصصين بالرياضيات والعلوم الطبيعية ، للتنبؤ بتطور أسعار الأوراق المالية ، بالاعتماد على معادلات رياضية غاية في الغموض والتعقيد .

مشتقات معقدة

المصارف تعرض في الأسواق أدوات مالية مشحونة بالمخاطر ، ولم يعد أحد يفهم مغزى هذه الأدوات المعقدة . وهي منتجات مالية تشتق قيمتها من التطور الذي يطرأ على قيمة أوراق مالية أخرى . هذا مع أن المشتقات كانت في البداية أدوات غاية في البساطة ، فلم تكن حينذاك أكثر من معاملات آجلة . لكن فيما بعد أخذت هذه المشتقات تزداد تعقيدًا . وبدأت تظهر مشتقات غريبة مثل :

ـ Collateralized Debts Obigations (CDOs) ، أي : سندات دين مضمونة بالقروض العقارية .

ـ Asset Backed Securities (ABS) ، أي : سندات دين مضمونة بأصول .

ـ Mortgage-Backed-Securties (MBS) ، أي : سندات دين مضمونة برهن عقاري . وهي جميعًا غاية في الغموض والتعقيد ، **ولا يكاد يفهمها حتى واضعوها** .

تحولت هذه المشتقات شيئًا فشيئًا إلى **قنابل موقوتة** ذات طاقة تفجيرية هائلة . وبلغت قيمتها عام ٢٠٠٧م في النظام المالي العالمي ٥٩٢ تريليون دولار أمريكي ، أي : عشرة أضعاف قيمة السلع والخدمات التي ينتجها العالم كله ، وستة أضعاف القيمة التي كانت عليها قبل سبعة أعوام .

الأثرياء الجدد

صار السماسرة الشبان العاملون في أقسام المشتقات ؛ الذين لم يمض على تخرجهم من الجامعة إلا بضع سنوات فقط ، صاروا يحصلون على مكافآت مالية تبلغ ملايين الدولارات ، ويتمتعون بسطوة عظيمة وسلطان واسع .

الدولار يتراجع

دأب الأمريكان على طبع المزيد من الدولارات الأمريكية ، من أجل تمويل حربهم المكلفة في فيتنام ، وغيرها من البلدان ، وصاروا يغرقون الأسواق بعملتهم .

قصص النجاح

تبين أن قصص النجاح الباهرة لم تكن إلا زورًا وبهتانًا ، وأن العديد من رجال الأعمال الذين وثق الناس فيهم واطمأنوا إلى نواياهم ، لم يكونوا في الواقع سوى **محتالين ونصابين** ، على النحو الذي أتقنته شركة إنرون في تكساس ، التي كان لها علاقات متينة بالرئيس **بوش** الابن ، وتبرعت له بالكثير من المال : ٥٥٠ ألف دولار لكي يصبح حاكم تكساس أولاً ، ثم رئيس الولايات المتحدة لاحقًا . واستخدم بوش ومساعدوه ١٤ مرة طائرة خاصة ، وضعتها إنرون تحت تصرفهم طيلة الحملة الانتخابية . وبعد ١٠ أشهر فقط في ٢/ ١٢/ ٢٠٠١م أفلست إنرون سابع أكبر شركة ، وكان إفلاسها أكبر إفلاس شهدته الولايات المتحدة في تاريخها ، بعد أن هبط سعر سهمها من ٩٠ دولارًا إلى بضعة سنتات فقط !

SPV

كيانات أو شركات ذات أغراض خاصة Special Purpose Vehicles ، المراد منها التستر على الوضع الحقيقي للشركة أمام المصارف والمساهمين والهيئات الضريبية . فهي من الحيل التي تلجأ إليها الشركات لتحقيق أغراض محددة . من ذلك ما قام به المدير المالي لشركة إنرون حين تراكمت الديون على الشركة شرع في ١٩٩٩م في تأسيس شركتين ، أطلق على إحداهما LJM1 والأخرى LJM2 ، الحرف الأول يشير إلى اسم زوجته لينا Lena والثاني اسم ابنه جفري Jeffrey ، وحملهما الديون المترتبة على الشركة ، كما قامتا بالمقامرة على صفقات ذات مخاطرة عالية جدًا ، وتعهدتا بتحويل الأرباح إلى الشركة الأم . وتقيم هاتان الشركتان في الواحات (أو الجنات) الضريبية ، مثل جزيرة كيمان Cayman .

تعليق : شاعت هذه العبارة في كتابات الاقتصاديين المسلمين ، لاسيما باللغة الإنكليزية . فلم يكتف البعض بالحيل الفقهية العربية ، بل راح يبحث عن الحيل عند الغرب أيضًا ، ليزيد الأمر ضغثًا على إبالة .

مصارف الظل

أو المصارف الخفية ، وهي مصارف ذات أغراض خاصة يراد من ورائها التحايل المحاسبي والضريبي . فهي بذلك أحد تطبيقات الـ SPV .

هجمات ١١ سبتمبر

تعرض لها المؤلف .

تعليق

لا يبعد أن تكون هجمات ١١ سبتمبر قد رتبها بوش وعصبته لكي يتنصلوا من المسؤولية ، ويلصقوا بالقاعدة ما لحق بأمريكا في عهده من خراب وفساد في الإدارة والاقتصاد . عندئذ يصعب التمييز بين نوعي الخراب . وهذا شبيه بما يفعله بعض لصوص المنشآت ؛ إذ يلجؤون إلى افتعال حريق فيها ، من أجل التعفية على السرقات التي قاموا بها .

الدين العام الأمريكي

تسبب **بوش** وعصابته في وصول الدين العام الأمريكي إلى مستويات لا يمكن أن تخطر على بال أحد . ففي سنوات حكمه الثمانية ارتفع الدين العام من حوالي ٣ تريليونات دولار إلى ما يربو على ٦ تريليونات . وهذا يعني أن الديون التي تراكمت في عهده تبلغ مجموع الديون التي تراكمت في عهود جميع الرؤساء الأمريكيين الذين سبقوه : ٤٢ رئيسًا ! ويبرر بوش هذا الارتفاع بالحرب على الإرهاب ، لاسيما الحرب على **أفغانستان** والحرب على **العراق** .

إنه باستثناء أزمنة الحروب ، وصل الدين العام إلى مستويات لا مثيل لها في التاريخ ، وستكون الدولة مكتوفة اليدين في العقود الزمنية المقبلة .

آلان غرينسبان

غرينسبان رجل غامض وغريب الأطوار ، أصيب في عام ١٩٧١م بوجع في ظهره (عرق النسا) . اختاره رونالد ريغان رئيسًا للاحتياطي الفيدرالي عام ١٩٨٧م ، وكان في الحادية والستين من عمره . وخرج من منصبه عام ٢٠٠٦م ، في سن التاسعة والسبعين .

يزعم المعجبون بغرينسبان أنه رجل عبقري خارق القدرات ، وساهم في تحقيق ازدهار أمريكا في التسعينيات ، وهو أطول ازدهار في تاريخ أمريكا ، وأنه صاحب الفضل في خفض معدلات الفائدة في الوقت المناسب ، وقاد أسواق المال إلى بر الأمان عقب الانهيار الكبير الذي عصف بالبورصات في أكتوبر ١٩٨٧م .

غير أن منتقدي غرينسبان يرون أن تزويد الاقتصاد بسيولة نقدية زهيدة التكلفة لم تسهم في انتعاش النشاط فحسب ، بل أسهمت بالمقابل في خلق **فقاعة** عظيمة في أسواق العقارات وأسواق التمويل الأمريكية . لقد كان الجميع في نهم للحصول على قروض زهيدة الكلفة . ويرى هؤلاء النقاد أن غرينسبان ارتكب **٣ أخطاء فاحشة** : **الخطأ الأول** : معدلات الفائدة المتدنية التي شجعت على اقتراض المضاربين وغيرهم ، حتى لقبوه بـ « سيد الفقاعات » . **الخطأ الثاني** : اعتقاده بأن أسواق المال يمكن أن تصحح نفسها بدون قيود ولا ضوابط ، حتى على سوق المشتقات التي لم يكن لها وجود قبل ٣٠ عامًا ، والتي بلغ حجم صفقاتها ٥٩٢ تريليون دولار . **والخطأ الثالث** : دعم مساعي الجمهوريين في خفض الضرائب . وخلال عامين لا أكثر ، حول بوش الفائض في الميزانية إلى عجز كبير ، لكي يتراكم الدين العام بصورة غير مسبوقة .

لكن غرينسبان الذي وصفه المؤلف بأنه مفلس ، يردّ بأن المصرف المركزي العظيم لم يعد يمتلك القوة اللازمة للوقوف في وجه القوى العالمية . قال : لقد كنا مغلوبين على أمرنا ؛ لأن الأسواق لم تعد تأبه كثيرًا بقرارات المصرف المركزي ؛ ولأن السلطات المكلفة بمراقبة أسواق المال العالمية أو توجيهها لم تعد قادرة على النهوض بوظائفها ؛ ذلك لأن هذه الأسواق قد بلغت من القوة والاتساع والسرعة مستويات لا تنفع معها

كل الإجراءات والتدابير التي يمكن اتخاذها .

كما يرى غرينسبان أن تشريع القوانين ليس من اختصاصه ، بل هو من اختصاص السياسيين . والقوانين هي التي أجازت المقامرات غير المحدودة بالمشتقات وغيرها من **أسلحة التدمير الشامل** ، كما وصفها كبار المضاربين من أمثال جورج سورس ووارن بافيت .

منشآت وهمية ليس لها إلا (ص . ب)

هناك جزر أو واحات أو جنات ضريبية تقيم فيها منشآت ليس لها وجود حقيقي ، بل لها فقط **صندوق بريد** (ص . ب) !

واحات ضريبية

تبين منظمة العدالة الضريبية Tax Justice Network أن أثرياء العالم أخفوا في الواحات الضريبية عام ٢٠٠٥م ما قيمته ١١,٥ مليار دولار . ووفق تقديرات البنك الدولي ، فإن مرتكبي الجرائم والمحتالين والهاربين من الضرائب يهرّبون في كل عام ثروات تتراوح قيمتها بين ٦٥٠ مليار دولار و١٠٥٠ مليار دولار ، ونصف هذه الثروات يأتي من **البلدان الفقيرة** !

الأثرياء أقدر على التحايل والتهرب

لأنهم يستطيعون اللجوء إلى الخبراء وتحمل أجور الخبرة ، ومن ثم فإن الفقراء هم الذي يتحملون العبء في الضرائب وغيرها .

تهريب الأموال إلى خارج البلاد

كثير من الأثرياء يهربون أموالهم إلى خارج البلاد تهربًا من دفع الضرائب .

تعليق : ربما يهربونها أيضًا خشية المحاسبة والمساءلة : من أين لك هذا ؟ ومن أجل أنهم إذا ما طردوا من البلاد وانتهى حكمهم التحقوا بأموالهم ؛ ولأنهم يريدون أن يتركوا لمن بعدهم من الحكام والأجيال **تركة مثقلة بالديون !**

وكالات التصنيف الائتماني

تقوم بتقييم الجدارة الائتمانية للشركات والأوراق المالية ، لكنها صارت عاجزة عن الوقوف بدقة على الأوراق المالية ؛ التي صارت تتدفق عليها كالسيول الجارفة .

خارج الميزانية

صار الشعار المرفوع منذ التسعينيات : انقل القروض إلى خارج الميزانية بأسرع وقت ممكن . بهذه الحيلة تستطيع المصارف تمويل قروض جديدة ، وتفادي الضوابط والقيود التي تفرضها سلطات الرقابة .

مصارف الاستثمار

لم تعد تأبه كثيرًا بالمخاطر التي تنطوي عليها رزم القروض التي يمكن المتاجرة بها في سوق المال . فالمصرفيون العاملون في وول ستريت سيبيعون بدورهم هذه القمامة السامة إلى الأطراف الأخرى ؛ إذ كل ما يهمهم هو الحصول على العمولة . ومن مصارف الاستثمار التي ذاع صيتها : مصرف ليمان براذرز Lehman Brothers وغولدمان ساكس Goldman Sachs ، وميريل لينش Merill Lynch .

أكبر من أن يفشل

أبانت الولايات المتحدة أن ثمة مصارف قد صارت من الأهمية بحيث

لا يجوز تركها لتعلن إفلاسها too big to fail . وهذا يعني أن المبدأ القائل بأن الأسواق قادرة على تصحيح الشطط والاختلال بقواها الذاتية ، قد صار من مخلفات الماضي .

إفلاس الدول

أيسلندا الدولة الصغيرة الواقعة في شمال أوروبا لن تكون قادرة على خدمة ما في ذمتها من ديون هائلة . وفي أكتوبر ٢٠٠٨م صارت في عداد المفلسين من الناحية العملية ، وانهارت عملة البلاد (الكرونة) إلى قاع لا قعر له .

من المسؤول ؟

ترك الأمريكان بنك **ليمان برذرز** يقضي نحبه عن وعي وإصرار ، وهو واحد من أكبر خمسة مصارف استثمارية ، لكي يثبتوا للمصرفيين العاملين في وول ستريت حقيقة مفادها : أن ليس كل مصرف يناشد الحكومة أن تمد له يد العون سيحصل على هذا العون بالضرورة . غير أن العالم دفع ثمنًا باهظًا لهذا **الخطأ القاتل** ، إذ انهار في الأسابيع التالية كل النظام المالي . ثم لم تعد الأزمة مقصورة على المصارف والبورصات ، بل انتقلت عدواها إلى الاقتصاد بكامله ، ثم إلى اقتصادات العالم كله . ومن ثم كان هذا الزلزال بمثابة الإنذار الذي أعلن **بداية النهاية** للرأسمالية المحررة من القيود والضوابط . لقد توقف تدفق السيولة النقدية ، التي هي للاقتصاد كالدورة الدموية لجسم الإنسان .

البيع على المكشوف

هو بيع أسهم غير مملوكة للبائع ، بل يقترضها ويبيعها Short Selling ، وهناك صيغة أسوأ ، وهي البيع على المكشوف العاري

Naked Short Selling ، وهو بيع **ما لا يملك** من الأسهم ، ولا حتى بطريق الاقتراض . ويرى بعض المصرفيين أن البيع على المكشوف هو المسؤول عن التصدعات التي عصفت بوول ستريت .

أمريكا على طريق الانحطاط

هذا ما تنبأ به عالم الاجتماع ريتشارد سينيت Richard Sennet . لقد تضعضعت ثقة الأمة الأمريكية بنفسها .

لو غيرت الصين موقفها لأفلست أمريكا

يستطيع الأمريكان اقتراض ما يحتاجون إليه من أموال هائلة ، إذا ما واصل المصرف المركزي الصيني شراء سندات الحكومة الأمريكية . فلو غير الصينيون موقفهم فإن الولايات المتحدة ستكون على حافة الإفلاس !

لولا أموال الصين والعرب

من غير أموال الصينيين والعرب يصعب جدًا على الدول الغربية أن تتجاوز الأزمة بسلام .

تعليق : لهذا فإن الغرب يعدّ كل ما يتعلق بالعرب والمسلمين إرهابيًا ، إلا أموالهم فإنه يرحب بها في المصارف الإسلامية ، والأسواق المالية الإسلامية ، والسندات والصكوك الإسلامية . فإما أن ننقذهم من الغرق وإما أن يغرقونا معهم .

دول الخليج

أعلن السعوديون والإماراتيون تكفلهم بضمان حقوق المودعين . واشتكى المستثمرون في دبي وأبو ظبي من أنهم يواجهون صعوبات جمة

في العثور على مستأجرين راغبين في استئجار عماراتهم ومكاتبهم . تحولت هاتان المدينتان إلى مدن براقة ، لم يعد ثراؤها محسوبًا بعدد براميل النفط ، بل بعدد الطوابق التي تتكون منها ناطحات السحاب . فالإماراتيون شيدوا اليوم أعلى برج في العالم : **برج دبي** البالغ ارتفاعه ٩٠٠ متر ، كما يشيدون أعظم ميناء جوي في العالم ، وأكبر جزيرة صناعية في المعمورة وأعظم فندق (قصر الإمارات) الذي استخدم فيه الذهب والمرمر ببذخ كبير !

غالبريت يشخص أزمة ١٩٢٩م

قدم غالبريت المشورة إلى خمسة من رؤساء الولايات المتحدة ، كان أولهم جون كنيدي . وفي كتابه « **الانهيار الكبير** » The Great Crash خصص ما يزيد على ٢٠٠ صفحة للحديث عن الأسباب التي أدت إلى أزمة ١٩٢٩م :

- المضاربة الجنونية .
- هشاشة النظام المصرفي .
- الوضع المزري للميزان التجاري الأمريكي .
- سوء توزيع الدخل القومي .

جورج سورس

ضارب سورس في عام ١٩٩٢م على الجنيه البريطاني وسجل انتصارًا على المصرف المركزي البريطاني . وكان سورس نال شهرة واسعة باعتباره مضاربًا عديم الضمير ورجلاً جشعًا لا يعرف للجشع حدودًا . هاجمه **مهاتير محمد** عام ١٩٩٧م قائلاً : إنه يمتلك المال الكثير ، ولكنه عديم الضمير ! أما اليوم بعد أن بلغ السبعين من العمر فربما استيقظ

ضميره عندما أخذ في التشكيك باقتصاد السوق المحررة من القيود والضوابط .

حكومة قوية

قال الاقتصادي الألماني ألكسندر روستوف عام ١٩٣٢م : « إن الليبرالية الجديدة التي ندعو إليها اليوم تستلزم وجود دولة قوية ، تعلو على الاقتصاد والمصالح الخاصة ، وتؤدي الوظائف التي هي من صلب اختصاصها » .

تعليق : من الصعب وجود حكومة قوية ، رأسمالية أو اشتراكية ؛ لأن الأولى ستخضع للشركات ، والأخرى ستخضع لها الشركات . ولو خيرت الحكومة بين التجار والجمهور لاختارت الشركات في السر أو في العلن . ولن تبيع الجمهور إلا الكلمات المعسولة . من أين نأتي بحكومة قوية مستقلة عن التجار ، تحكم للضعيف على القوي ؟ إننا نحتاج إلى حكومة أنبياء . قل لي : في أي عهد انتصرت الدولة للحق على الباطل ؟ للفقير على الغني ؟ للضعيف على القوي ؟

٢٢ اقتراحًا

١ـ لا يجوز للدولة أن تسعف المصارف إلا بشرط إخضاعها لاحقًا لتوجيه حكومي أكثر صرامة .

٢ ـ يجب القضاء كليًا على **مصارف الظل** التي يتم اللجوء إليها للتفلت من القيود والضوابط .

٣ ـ يجب فرض ضوابط صارمة على صناديق التحوط التي أفرطت في الاستدانة .

٤ـ يجب منع المتاجرة بالمشتقات والمنتجات المالية العالية المخاطر .

٥ـ يجب أن تتخصص بعض وكالات التصنيف بالتصنيف فقط ، والبعض الآخر بتقديم المشورة للمصارف .

٦ـ يجب وضع سقف للرواتب والتعويضات التي يحصل عليها رؤساء الشركات .

٧ـ تحتاج أسواق المال إلى سلطة رقابية عالمية . ويمكن توسيع صلاحية صندوق النقد الدولي لكي يقوم بهذه المهمة .

٨ ـ **الواحات الضريبية** يجب أن تختفي من الوجود .

٩ـ يجب إلزام البلدان الصناعية بتطبيق هذا الحظر على واحاتها الضريبية ، وهو ما اقترحه جوزيف ستيغلتس الحائز على جائزة نوبل .

١٠ـ يجب التخلي عن **السرية المصرفية** ، من أجل تحديد الضرائب المستحقة .

١١ ـ يجب زيادة العبء الضريبي على الأثرياء .

١٢ـ يجب زيادة المعدلات الضريبية المفروضة على **التركات** .

١٣ـ يجب فرض ضريبة على قيمة التعاملات في البورصات .

١٤ـ يجب تحديد **حد أدنى لأجر العامل** .

١٥ـ يجب فرض هذا الحد الأدنى بالنسبة لجميع العاملين .

١٦ـ يجب تقديم **تعليم أفضل** للشرائح الدنيا من المجتمع .

١٧ـ يجب أن يحظى التعليم بنفس الأهمية التي تحظى بها الرعاية الصحية .

١٨ ـ يجب على الحكومة أن تمن على الاستثمار بتسهيلات ضريبية مختلفة ، مثل قبول معدلات اهتلاك (اندثار) أعلى .

١٩ـ يجب منح المشاريع قروضًا ميسرة الفوائد ، لاسيما في أوقات الركود .

٢٠ـ يجب على الدولة أن تتوسع في الإنفاق في حالات الركود ، مع التركيز على المجالات التي تؤدي إلى نتائج أسرع .

٢١ـ على الدولة في أيام الرخاء أن تدخر ، وأن تكف عن الاقتراض ؛ لأن الدولة غير المدينة تستطيع التحرك بحرية أكبر في أيام الركود .

٢٢ـ يجب تحقيق أعلى مرونة ممكنة في الاقتصاد . ذلك أن برامج الإنعاش لا يمكن أن تعمل بنجاح تحت وطأة قوانين من شأنها تحجر البنية الاقتصادية وشلّ النشاط الاقتصادي .

المشعوذون

ستنشأ على أنقاض الأزمة أحزاب يمينية ويسارية جديدة ، يقودها مشعوذون يجيدون التلاعب بمشاعر العامة ، ويتقنون إقناع البسطاء من الناس بأن الطريق للخروج من الأزمة غاية في السهولة واليسر ، مع العلم بأن كسر طوق هذه الأزمة ليس بالأمر الهين ، بل يتطلب جهودًا شاقة .

مستقبل النظام الرأسمالي

يتوقف على مدى التغير الذي سيطرأ على **الأخلاقيات** السائدة في المجتمع ، وعلى إدراك الجميع أن مبدأ **المسؤولية الاجتماعية** لا يقل أهمية عن مبدأ السوق الحرة . وإذا تجاهل المجتمع هذه الحقيقة فإن اقتصاد السوق المتحرر من القيود والضوابط ، ومن أبطاله فريدمان

وهايك ، سيتعرض لنفس المصير الذي تعرض له الاقتصاد الاشتراكي : الانهيار والاختفاء من الوجود .

المراجع

المراجع ذكرت على حسب فصول الكتاب ، ولم يقتصر المؤلف على المراجع الألمانية ، بل رجع أيضًا إلى الكثير من المراجع باللغة الإنكليزية .

الترجمة

الدكتور عدنان عباس علي ليس مترجمًا فحسب ، بل هو مؤلف للعديد من الكتب الاقتصادية ، وهو نفسه الذي سبق أن ترجم كتاب « فخ العولمة » الذي نشره عالم المعرفة أيضًا عام ١٩٩٨م ، وراجعه رمزي زكي ، ولا أدري عن مدى جدية هذه المراجعة . أما كتابنا الجديد هذا فهو ترجمة بلا مراجعة ، ولكن في موضع ما من الكتاب ورد هامش ذكر فيه أنه من عمل المحررة . فهل كان هناك تحرير ؟ ولد المترجم في العراق عام ١٩٤٢م ، وولد المؤلف في ألمانيا عام ١٩٦٧م ، فبينهما فارق في العمر : ٢٥ عامًا . عمر المترجم : ٦٨ ، وعمر المؤلف : ٤٣ .

الترجمة ناجحة وسريعة (الأصل الألماني ٢٠٠٩م ، والترجمة مطلع ٢٠١٠م) ، ولكن لي عليها بعض الملاحظات القليلة بالنسبة لحجم الكتاب :

ـ السطر العلوي الذي يذكر فيه في الصفحة اليمنى : عنوان الكتاب ، وفي الصفحة اليسرى : عنوان الفصل ، فيه مشكلة في الإخراج ، فالبنط فيه كبير وأسود ، ولو جعل البنط أصغر وأفتح ، لكان أفضل ، فهو في صورته الحالية بدا كأنه عنوان فقرة تشوش القارئ !

ـ هناك هوامش من المترجم مقبولة ، إلا هامشًا واحدًا طويلاً كان من المستحسن الاستغناء عنه .

ـ إيراد العديد من هوامش المترجم داخل متن الكتاب ، وكان من الأفضل تنزيلها إلى أسفل الصفحة ، كغيرها من الهوامش .

ـ لم يترجم المترجم عبارة Over-the-Counter ، وترجمتها : سوق التداول خارج البورصة .

ـ ثمة مصطلحات تكررت كثيرًا يحسن ترجمتها بعبارات أخرى ، مثل صناديق المخاطر Hedge Funds ، والصواب : صناديق التحوط من المخاطر ، أو صناديق التحوط .

ـ هناك عبارات متكررة يحسن العدول عنها إلى ما هو أفضل منها ، مثل بضائع مالية ، والأفضل : منتجات مالية ، ومثل : حقًا وحقيقة (تكررت كثيرًا) ، كان يكفي واحدة فقط ، وهي عبارة دارجة في اللهجات العامية في العراق وسوريا وربما في غيرهما من البلدان العربية .

ـ قروض معدومة أي : ديون مشكوك في تحصيلها ، والصواب : قروض مشكوك في تحصيلها ، فالديون المعدومة غير الديون المشكوك فيها ، ولا أدري هل هذا من المؤلف أم من المترجم ؟

ـ هناك أخطاء في بعض العبارات الإنكليزية ، أما الألمانية فلا أدري عنها لأني لا أعرف الألمانية .

ـ هناك بعض الأخطاء ، وإليك أمثلة عنها :

ـ تكاد لا تقل شأنًا ، الصواب : لا تكاد تقل .

ـ تحويل الاسم الأجنبي : جوزيف إلى يوسف ، ولو ناديته بهذا الاسم ما ردّ عليك ، مثل : جوزيف آكرمان ، أو هِرمان جوزيف آبس .

ـ من هو ذا الذي ، الأفضل والأخف : من هو الذي ، أو : من ذا هو الذي .

ـ موسكو لم تعد قادرة على خدمة ديونها إلا بالكاد ، والصواب : موسكو لم تعد قادرة على خدمة ديونها إلا قليلاً .

ـ فاقوا زملائهم ، والصواب : زملاءهم .

ـ سبعمئة مليارًا دولارًا ، والصواب : سبعمئة مليار دولار . وهو **خطأ فاحش** .

ـ تحويل مدخراتهم إلى نقدًا سائلاً ، والصواب : إلى نقد سائل . وهو **خطأ فاحش** .

ـ دخول وثروات الأغنياء ، والصواب : دخول الأغنياء وثرواتهم .

ـ أطلقت عليهم لقب « الأربعمئة المحظوظون » ، والصواب : الأربعمئة المحظوظين .

ـ اقتصادياتها الوطنية ، والأفضل : اقتصاداتها .

ـ بوصفهم مستهلكين ومدخرين وأيديًا عاملة ، والصواب : أيديَ .

ـ يبدو أنهم في العراق يقولون : تجار المفرد ، وفي مصر : تجار التجزئة ، وفي سوريا : تجار المفرق . فالمصطلح قد يختلف من بلد عربي إلى آخر .

ـ وفي العراق يقولون : اندثار ، وفي غيره : اهتلاك .

* * *